الفصل الرابع

في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه

ودخلَ على عثمان، فقال: يا أباذر، ما لأهل الشام يشكون ذَرَبَك[1]؟!. فأخبره أنه لا ينبغي أن يُقال: مال الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً. فقال: ياأباذر، عليَّ أن أقضي ما عليَّ، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما عليّ أن أجبرهم على الزهد. قال أبو ذر: لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ألاَّ يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان، ويصل القرابات. فقال كعب الأحبار: من أدَّى الفريضة فقد قَضَى ما عليه. فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجَّه. فاستوهبه عثمان شجته، فوهبها له. كما أغلظ أبو ذر القول لكعب، وقال له: يا بن اليهودية، ما أنت وما هاهنا!!. فقال عثمان: يا أبا ذر: اتَّقِ الله واكففْ يدكَ ولسانك.

فقال أبو ذر لعثمان: «تأذن لي في الخروج من المدينة؟ فإن رسول الله ﷺ أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعًا». فأذِنَ له عثمان، فنزل الرَّبَذَة، وبنى بها مسجدًا، وأقطعه عثمان صرمة[2] من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه كل يوم عطاء[3].

* * *

ودعوة أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ كما هو واضح تمثل معارضة لوضع قائم، وهي دعوة يغلب عليها الطابع الروحي المثالي[4]، ومثل هذه الدعوة قد يأخذ بعض الناس أنفسهم بها طواعية عن رِضًا واقتناع، ولكن يصعب ـ بل يستحيل ـ على أي حاكم أن يحمل الرعية على أخذ أنفسهم بها لأن من

---

(١) حدَّتك وشدتك.

(٢) الصرمة من الإبل: ما بين العشرة والخمسين.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢٨٣. والكامل لابن الأثير ٣/ ١١٥.

(٤) وقد لاحظ النبي ﷺ هذا الطابع الروحي المثالي في أبي ذر فقال عنه: «أبو ذر في أمتي عَلَى زهد عيسى ابن مريم» [أسد الغابة ٥/ ١٨٧]. والمجتمعات ـ كما ذكرنا ـ يصعب عليها سلوك مثل هذه السبل، وقد يؤيد ما نقول ـ ولو على سبيل الاستئناس ـ قول علي ـ كرم الله وجهه ـ : «وَعَى أبو ذر علمًا عَجَزَ الناس عنه» [السابق نفس الصفحة].

مقتضيات هذه الدعوة ولوازمها ما يعتبر أموراً مستترة تخفى على الآخرين، ومن ثم يصعب بل يستحيل ضبطها والحكم عليها، زيادة على ما فيها من تشديد على الناس، وقد جاء الإسلام بالتيسير ودفع الحرج.

وغير ما سبق نلاحظ فى هذا المقام عدة حقائق، أهمها:

١- أن حماسته - رضى الله عنه - لدعوته كانت تتحول فى كثير من الأحيان إلى حِدَّة باليد واللسان، كما رأينا فى مسلكه مع كعب الأحبار فى حضرة الخليفة. ولكن هذه الحِدَّة لم تصل إلى حد العصيان والخروج على الخليفة والانسلاخ من بيعته.

٢- أنه بطابعه الروحى الزاهد لم يتمكن من الاتساق نفسيًّا وذهنيًّا مع المتغيرات التى طرأت على المجتمع الإسلامى بعد النبى ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - ومن هذه المتغيرات «كبر مقدار الثروة التى ينعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر إلى كثيرها وقليلها، ومسوغاتها ومحظوراتها، فربما بلغت ثروة الرجل الواحد فى خلافة عثمان ما يعدل ثروة السادة المترفين جميعًا على آخر عهد الجاهلية، وما يحسب - حتى فى زماننا هذا - غنى مفرطًا عند أغنى الأغنياء»[1].

٣- أنه - رضى الله عنه - فاته أن دعوته - وقد قصد بها وجه الله - تستغل استغلالاً سيئًا من أعداء الإسلام والدولة الإسلامية، فيقال: إن عبد الله ابن سبأ (ابن السوداء) ذلك اليهودى الذى ادعى الإسلام حتى يتمكن من الكيد له ولأهله، أخذ يحرضه فى الشام على معاوية، ويقول له: «يا أبا ذر: ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله، ألا إن كل شىء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين»[2].

وينطلق أبو ذر إلى معاوية، ويقول له: «ما يدعوك إلى أن تسمى مال

---

(١) العقاد: ذو النورين، ص ١٠٩.

(٢) الطبرى ٤/ ٢٨٣.

المسلمين مال الله؟» فيرد معاوية: «يرحمك الله يا أباذر، ألسْنا عباد الله والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره؟!» يقول أبو ذر: «فلا تَقلْه». فيكون جواب معاوية: «فإنى لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول: مال المسلمين»[1].

وواضح ما بين الأسلوبين من فارق شاسع: فأسلوب أبى ذر ينطق بالحدة التى لا تعرف السياسة، أما أسلوب معاوية فهو السياسة التى لا تعرف الحِدَّة إليها سبيلا، ولا عجب، فهو الداهية الذى يعطى للمقام ما يناسبه من أقوال أو أفعال.

٤- أن رسول الله ﷺ بشفافية النبى، وعبقرية القائد كان يعى تمامًا أن أباذر - على صلاحه وتقواه - لم يوهب القدرة على تولى المهام وإدارة الأمور التى تحتاج إلى متابعة وتوجيه وإشراف ومصابرة فى التعامل مع الآخرين.. فقد روى عن أبى ذر نفسه قال: قلت يارسول الله: ألا تستعملنى؟. قال: فضرب بيده على منكبى، ثم قال: **«يا أبا ذر: إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلاَّ من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه منها»**[2].

فالنبى ﷺ رفض أن يولى أباذر عملاً عامًّا؛ لأن إدارة مثل هذا العمل أمانة، وهو «ضعيف»، أى: لا يملك من القدرات الإدارية والسياسية، وبراعة التعامل مع الناس، ما يمكنه من الاضطلاع بمسئولية هذه الأمانة. ولا يقال إن علة الرفض هى أن أبا ذر طلب الإمارة استئناسًا بنهى النبى - عليه السلام - عبد الرحمن بن سمرة عن طلب الإمارة[3] وإنه قال لرجلين طلبَا أن يؤمِّرَهُمَا

---

(١) السابق نفس الصفحة. «والواقع أن القول بأن المال مال الله كالقول بأن المال مال المسلمين لا يترتب على التفريق بينهما أية نتيجة عملية، كما أن القول بهما معًا أو بأحدهما ليس فيه ما يخدش العقيدة أو الشرف. وإنما يجب أن ينصرف الحكم بالصواب أو الخطأ، بالمشروعية أو عدمها إلى العمل الذى يستهدفه القائل بكلمته.

(٢) صحيح مسلم: باب «النهى عن طلب الإمارة» المجلد السادس ١٢/٢٠٩.

(٣) ونص الحديث **«يا عبد الرحمن: لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتَها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها»** السابق ١٢/٢٠٦.

على بعض الأعمال: «**إنَّا والله لا نولى هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه**»[1]. لأن حديث أبى ذر مروىٌّ من طريق آخر ليس فيه ذكر لطلب أبى ذر الاستعمال، ونص الحديث أن النبى ﷺ قال له: «**يا أبا ذر: إنى أراك ضعيفًا، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تأمَّرنّ على اثنين، ولا تَوَلَّين مال يتيم**»[2].

يقول الإمام النووى فى شرحه على مسلم: هذا الحديث أصل عظيم فى اجتناب الولايات، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية[3].

وربما كان ضعف الحاسة الاجتماعية والإمكانات السياسية عند أبى ذر هو الذى حدا بالنبى ﷺ أن يطلب منه «الخروج» أى «الانعزال» الاجتماعى إذا ما بلغ المجتمع مرحلة من التطور لن يستطيع أبو ذر أن يتوافق معها أو يوقف مسيرتها، وقد جعل أمارتها أن «يبلغ البناء سلعًا»، أى أن يمتد العمران إلى هذه المنطقة التى لم يكن بها عمران أيام النبى عليه الصلاة والسلام.

وآثر أبو ذر أن يخرج إلى الربذة، وخرج إليها معززًا مكرماً، وأجرى عليه الخليفة عطاءً طيبًا لا ينقطع، وطلب منه أن يزور المدينة بين الحين والحين حتى لا يجفو من الإقامة الدائمة بالصحراء، **وكان خروج أبى ذر هو الحل الناجع الذى لا حل غيره.**

---

(١) السابق ١٢/ ١٠٧.

(٢) السابق ١٢/ ٢١٠.

(٣) ولا ينقض هذا بما جاء فى سيرة ابن هشام من أن النبى ﷺ استخلفه على المدينة عند خروجه لغزوة ذات الرقاع وغزوة بنى المصطلق [م ٢: ص ٢٠٣، ٢٨٩]. لأن هناك قولاً آخر بأن النبى استخلف فى الأولى عثمان بن عفان، وفى الثانية نميلة بن عبد الله. على أن مثل هذا الاستخلاف يعد عملاً مؤقتًا عابرًا لا يحتاج إلى مجهود كبير، ولا يتطلب توافر صفات معينة شأن القضاة والولاة وقادة الجيش وجامعى الخراج، والدليل على ذلك أن أكثر الناس استخلافًا على المدينة كان عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ـ رضى الله عنه ـ إذ استخلفه النبى على المدينة ١٣ مرة عند خروجه للغزو، وقد غزا ـ عليه السلام ـ سبعًا وعشرين غزوة [أسد الغابة، م ٤/ ١٢٧]. وانظر ابن هشام: م/ ٢ ص ٦٠٨، ٦٠٩.

- فهو فى الربذة بعيد عن المظاهر التى تثيره وتهيج مشاعره، وتدفعه إلى ما يمكن أن يسىء إلى نفسه وإلى الآخرين.

- والخليفة - من ناحية أخرى - فى مأمن من الحرج الذى قد يدفعه إلى استغلال الناقمين والحاقدين لهذا الصوت البرئ الذى ما قصد به صاحبه إلى مطمع أو دنيا، وفى وقت بدأت فيه الفتنة تطل برأسها، وترسى قواعدها.

* * *

وفى عهد عثمان - رضى الله عنه - بدأت المعارضة تسير فى طريقها المنحرف المنكود، وخصوصًا بعد السنين الست الأولى من خلافته، فتحولت الكلمة المعبرة إلى سهم قاتل، وتحول الرأى إلى سيف يسفك الدماء. ولم تعد المعارضة «قولاً» يواجه بالحجة موقفًا أو قولاً آخر، ولم تعد المعارضة تنطلق من مرتكزات الشعور بالواجب الدينى والمسئولية الاجتماعية، والحرص على صالح الإسلام والمسلمين، ولكن ولدتها الأهواء، وحركتها المطامع، والحرص على المنافع الذاتية، وتقويض الخلافة، وممن تولى كبر هذه المعارضة المنحرفة من كانوا يطمعون فى أن يمنحهم عثمان من المناصب والمغانم ما يشبعهم ويروى نهمهم، ولكن عثمان خيب تطلعاتهم وأطماعهم، مثل محمد بن حذيفة.

ومن هؤلاء من كان لهم هدف من ذلك، وهو إفساد العقيدة الإسلامية، وتخريب الأمة الإسلامية، مثل عبد الله بن سبأ ومن مالأه[1].

ومن هؤلاء أعراب وغوغاء يتبعون كل ناعق طمعًا فى مغنم... أىّ مغنم يحصلون عليه، دون تحكيم لدين أو عقل.

* * *

وفى مواجهة كل هؤلاء كان عثمان سمحًا رفيقًا رقيقًا، حتى أن بعض

(١) انظر تفصيل دور عبد الله بن سبأ وما كان يدعو إليه فى كتاب أبى زهرة: المذاهب الإسلامية ٤٦-٤٨.

أصحاب رسول الله ﷺ طلبوا منه قتل بعض رءوس الفتنة ولكنه رفض وقال: «بل نعفو ونقبل، ونبصرهم بجهدنا»[1]. وحُوصِر عثمان، ومَنَعَ عنه محاصروه الماء والطعام، وكان معه من الرجال ما يمكنه أن يقاتل بهم محاصريه. ومرة أخرى يعرض عليه المغيرة بن شعبة أن يفعل ذلك، لكنه يأبى ويقول: لن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك الدماء[2].

وأخذ - رضى الله عنه - يعرض ما أخذه عليه معارضوه من «أخطاء» و «مثالب»، ويفندها أمام المسلمين واحدة واحدة:

- أخذوا عليه أنه أتم الصلاة فى السفر.
- وأخذوا عليه أنه حَمَى الحِمَى.
- وأخذوا عليه أن القرآن كان كتبًا فتركها إلا واحدًا.
- وأخذوا عليه أنه رد الحَكَم بن العاص إلى المدينة بعد أن أخرجه رسول الله ﷺ منها.
- وأخذوا عليه أنه استعمل الأحداث (صغار السنّ).
- وأخذوا عليه أنه أعطى ابن أبى السرح ما أفاء الله عليه.
- وأخذوا عليه أنه يحب أهل بيته ويعطيهم[3]...

وكلما فند عثمان تهمة من هذه التهم أمَّن المسلمون على كلامه وصدقوه. ولكن المسألة - فى حقيقتها - كانت أعتى من تهم تُكال وتفنيد يُصَدَّق أو يُكَذَّب، فالتآمر الخفى كان أقوى وأعمق امتدادًا من كل ما يظهر على السطح. وفى سبيل تحقيق الأهداف الخسيسة سلك المتآمرون من الطرق، واتخذوا من الوسائل أحطها وأبشعها، واستحلوا الكذب والإفك والتزوير، وأجتزئ بشاهد واحد من التاريخ:

---

(١) الطبرى ٤/٣٤٦.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ١٦١.

(٣) انظر خطبته التى تصدى فيها لهذه التهم فى الطبرى ٤/٣٤٧، ٣٤٨. وراجع أيضًا فى تفنيد هذه التهم وغيرها: كتاب العواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى المعافرى.

زحفت جموع من البصرة والكوفة ومصر إلى المدينة وكلهم يطلبون خلع عثمان، وإن اختلفوا فيمن يخلفه، فقصد المصريون عليًّا لمبايعته، وقصد البصريون طلحة، وقصد الكوفيون الزبير، ولكن الثلاثة رفضوا، وأغلظوا لهم فى القول، فتظاهروا جميعًا بالانصراف إلى بلادهم، كُلُّ جَمْعٍ من طريق.

وبعد أن قطعوا عدة مراحل عاد المصريون زاعمين أنهم فى طريقهم إلى مصر، أمسكوا بعبد من عبيد الصدقة معه كتاب موجّه إلى والى مصر يطلب فيه عثمان عقاب زعماء المصريين جلدًا أو قتلاً، على اختلاف فى الروايات[1].

وفى الوقت نفسه عاد الكوفيون والبصريون إلى المدينة، وحاصرت الجموع الثلاثة عثمان إلى أن قتلوه.

وهذا الكتاب مزور موضوع على سبيل اليقين: فهو ـ على الرغم من أنه لا يزيد على ثلاثة أسطر ـ يرد فى كتب التاريخ بثلاث أو أربع صيغ مختلفات، كذلك جاء الاختلاف فى نوع العقوبة، وأسماء المطلوب عقابهم.

ويرجَّح أن هذا الكتاب قد زُوِّرَ فى المدينة بأيدى زعماء المتآمرين قبل انصرافهم من المدينة، يدل على ذلك أنهم بعد أن قطعوا إلى بلادهم مراحل ذات عدد عادوا إلى المدينة فى وقت واحد، مما يقطع بأنهم اتفقوا على ميعاد لهذا اللقاء، وإلاَّ فكيف علم الكوفيون والبصريون أن المصريين أسروا عبدَ إبل الصدقة ومعه هذا الكتاب؟ وقد جابههم على بن أبى طالب بذلك، وقال لهم: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟!

قالوا: فضعوه كيف شئتم، لا حاجة لنا فى هذا الرجل، ليعْتزِلْنا[2].

وحاصروا بيت عثمان، ومنعوه الصلاة والماء والطعام لأربعين يومًا انتهت بقتله ونهب بيته، وبعدها لم يتوقف تدفق الدم على مدار التاريخ الإسلامى.

---

(١) انظر الطبرى ٤/ ٣٧٣.

(٢) انظر: العواصم من القواصم، ص ١٢٧. وتاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ١٥٨ ، ١٥٩.